دروس (٧ / ٤١-٤٢)

سورة ٥١

حاشية

على

تفسير ابن كثير لسورة الذاريات

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾
وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا
الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ
مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ
﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ
﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ
شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ
كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾
أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

[الدرس الأول]

قال الحافظ المفسِّر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ، عَنْ سِمَاك[1] عَنْ خَالِدِ بْنِ عَرْعَرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيًّا وَشُعْبَةَ أَيْضًا، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بزَّة، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، سَمِعَ عَلِيًّا. وَثَبَتَ أَيْضًا مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: أَنَّهُ صَعِدَ مِنْبَرَ الْكُوفَةِ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَا عَنْ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ، إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِذَلِكَ. فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكَوَّاءِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾؟ قَالَ: علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرِّيحُ قَالَ: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾ ؟ قَالَ: السَّحَابُ. قَالَ: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾؟ قَالَ: السُّفُنُ. قَالَ: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾؟ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ.

قَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ، فَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَانِئٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سَلَّامٍ الْعَطَّارُ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي سَبْرَة، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: جَاءَ صَبِيغ التَّمِيمِيُّ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرْنِي عَنِ ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ فَقَالَ: هِيَ الرِّيَاحُ، وَلَوْلَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ مَا قُلْتُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ ﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ قَالَ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ، ولولا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ مَا قُلْتُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ قَالَ: هِيَ السُّفُنُ، وَلَوْلَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُهُ مَا قُلْتُهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَضُرِبَ مِائَةً، وَجُعِلَ فِي بَيْتٍ، فَلَمَّا بَرَأَ دَعَا بِهِ وَضَرَبَهُ مِائَةً أُخْرَىٰ، وَحَمَلَهُ عَلَىٰ قَتَب، وَكَتَبَ إِلَىٰ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ: امْنَعِ النَّاسَ مِنْ

---

(١) سِماك هو سماك بن حرب. شعبة يروي عن سماك، ويصل في الغالب إلىٰ علي عن طريق اثنين.

مُجَالَسَتِهِ. فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ أَتَىٰ أَبَا مُوسَىٰ فَحَلَفَ بِالْأَيْمَانِ الْغَلِيظَةِ مَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِمَّا كَانَ يَجِدُ شَيْئًا. فَكَتَبَ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ عُمَرَ، فَكَتَبَ عُمَرُ: مَا إِخَالُهُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ، فَخَلِّ بَيْنَهُ وبين مجالسة الناس.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ: فَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ لَيِّنٌ، وَسَعِيدُ بْنُ سَلَامٍ لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ.

قُلْتُ: فَهَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ رَفْعُهُ، وَأَقْرَبُ مَا فِيهِ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ عُمَرَ، فَإِنَّ قِصَّةَ صَبِيغ بْنِ عَسَلٍ مَشْهُورَةٌ مَعَ عُمَرَ، وَإِنَّمَا ضَرَبَهُ لِأَنَّهُ ظَهَرَ لَهُ من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي تَرْجَمَةِ صَبِيغٍ مُطَوَّلَةً. وَهَكَذَا فَسَّرَهَا ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ. وَلَمْ يَحْكِ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالذَّارِيَاتِ: الرِّيحُ كَمَا تَقَدَّمَ وَبِالْحَامِلَاتِ وَقْرًا: السَّحَابُ كَمَا تَقَدَّمَ؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ الْمَاءَ، كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ:

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... هُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا

فَأَمَّا الْجَارِيَاتُ يُسْرًا، فَالْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ -كَمَا تَقَدَّمَ-: أَنَّهَا السُّفُنُ، تَجْرِي مُيَسَّرَةً فِي الْمَاءِ جَرْيًا سَهْلًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ النُّجُومُ تَجْرِي يُسْرًا فِي أَفْلَاكِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَرَقِّيًا مِنَ الْأَدْنَىٰ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ، إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهُ، فَالرِّيَاحُ فَوْقَهَا السَّحَابُ، وَالنُّجُومُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَالْمُقَسِّمَاتُ أَمْرًا الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ ذَلِكَ، تَنْزِلُ بِأَوَامِرِ اللهِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ. وَهَذَا قَسَمٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ وُقُوعِ الْمَعَادِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ أَيْ: لَخَبَرُ صِدْقٍ، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ ﴾، وَهُوَ: الْحِسَابُ ﴿لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ أَيْ: لَكَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصّلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد؛ فهـٰذه السّورة كلّها مكية، ويدلّ علىٰ ذلك ما اشتملت عليه؛ فإنّ السّور المكية تشتمل علىٰ تقرير التّوحيد والمعاد والنبوّات.

والتّوحيد تارةً يكون بذكر توحيد الربوبية، وتارة يكون بذكر توحيد الإلهية.

وصدْر هـٰذه السّورة ومطلعها وهو قوله جل وعلا: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾ فُسِّرت كما سمعت بأنّ الذّاريات هي الرِّيح، وأن الحاملات هي السّحاب، وأن الجاريات السّفن،

والمقسمات الملائكة، وهـٰذا هو المشهور في تفسير هـٰذه كما ذكر في آخر الكلام، هو المشهور عن الصحابة وعن التابعين.

وهناك قول آخر، وهو أنَّ هـٰذه المقسم بها كلّها الملائكة، فالذّاريات هي الملائكة، والحاملات هي الملائكة، والجاريات هي الملائكة، والمقسِّمات هي الملائكة جميعًا، وهـٰذا من جهة النّظر غير مدفوع؛ لأنّ مشركي العرب تعتقد في الملائكة أنها بنات الله -جلّ وعلا-، وتعبد طائفة من العرب الملائكة، وذِكر أنّ الملائكة يأتمرون بأمر الله -جل وعلا-، وأنهم مسخّرون لما في هـٰذا الملكوت من أفعال، وأنهم موكّلون بهـٰذه الأعمال، فيه إخراج لهم عما اعتقد أهل الجاهلية أو بعض أهل الجاهلية فيهم.

وهـٰذا كما ترىٰ يكثر في سور كثيرة كقوله جل وعلا: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾[النازعات] الآيات، وكقوله جل وعلا: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١﴾[المرسلات] الآيات، وكقوله جل وعلا: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾[الصافات]، وأشباه ذلك.

فالأول -يعني علىٰ المشهور- فُسرت بذلك لما فيها من الدِّلالة علىٰ توحيد الربوبية، ولازمه أن يوحِّدوا الله -جل علا- في إلٰهيته سبحانه.

والثاني فيه إبطال لعبادة الملائكة واعتقاد أنهم آلهة وأنهم بنات الله جل وعلا.

فعلىٰ كلٍّ الآيات مُشتملة علىٰ ذكر التوحيد، سواء فُسِّرت بالملائكة والسّحاب إلىٰ آخره؛ يعني فسرت الذّاريات بالرياح والحاملات بالسحاب إلىٰ آخره، أو فُسّرت الجميع بالملائكة كما ذكرتُ أنه قول له حظٌّ من النظر، فهي مشتملة أيضا علىٰ ذِكْر التوحيد.

وقصة صبيغ بن عسل التّميمي اليمامي قصّة مشهورة معروفة، والسُّؤال عن مثل هـٰذه الآيات مما يكون مشتبهًا علىٰ قارئ القرآن له حالان:

- إما أن يسأل طلبًا للفائدة.
- وإما أن يسأل تلبيسًا علىٰ الناس، وتعنُّتًا في طلب معنىٰ تلك الآيات.

فإن سأل طلبا للفائدة أُجيب؛ لأنّ رد المتشابه إلىٰ المحكم هو صنيع الرّاسخين في العلم.

وأمّا إن سأل عن المتشابهات تلبيسًا علىٰ الناس، أو تعنّتا فإنه يؤدّب ولا يجاب، فلا يُشرع في الحال

الثانية أن يجاب من سأل تعنّتا أو تلبيسًا أو أوْرد الأسئلة أو الشبه أو المتشابهات علىٰ وجه التّلبيس والتعنّت لا علىٰ وجه طلب الفائدة فإنه يُزجَر كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذن تُحمل أفعال عمر مع صبيغ، وما جاء في غيرها أنه ضربه وعلاه بالدرّة علىٰ رأسه، وغير ذلك من الرِّوايات، علىٰ أنّه علِم من حال صبيغ أنه سأل تعنّتا أو سأل تلبيسًا، ومثل هـٰذا يؤدّب.

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ هـٰذا هو جواب القسم، ومعنىٰ جواب القَسَم؛ يعني ما جيء بالقسم لأجله، فالله -جل وعلا- أقسم بالذاريات وأقسم بالحاملات، وأقسم بالجاريات، وأقسم بالمقسِّمات، أو أقسم بالذاريات وعطف البقية عليها، فكان جواب القسم؛ يعني الغرض الذي من أجله أقسم الله -جل وعلا- هو تحقيق الوعد الصّادق وأن يوم القيامة لا ريب فيه، وهـٰذا فيه أيضًا دليل علىٰ أن تقرير التوحيد يلزم منه تقرير المعاد؛ فقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني من بعث الناس بعد الموت وحسابهم ودخول المطيعين الرسل للجنة ودخول المعرضين عما جاءت به الرسل النار، هـٰذا الوعد صادق.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ يعني: أن الحساب والجزاء لواقع، والدين هنا بمعنىٰ الجزاء والحساب؛ كقوله جل وعلا: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة].

و(الدين) تأتي في القرآن علىٰ أنحاء متعددة:

منها هـٰذا، وهو أن الدِّين هو الجزاء.

ويأتي بمعنىٰ الملة والشريعة كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩]، وكقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥].

ويأتي (الدين) ويراد به ما يدين به الناس ويلتزمونه من الأحكام والأقوال والاعتقادات فيما بينهم، سواء كان حقا أو باطلا، وهـٰذا فيه قول الله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[يوسف:٧٦].

وهـٰذا كما يقال من الوجوه والنظائر في القرآن.

قال المصنف:

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَاتُ الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ وَالْحُسْنِ وَالِاسْتِوَاءِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْر، وَأَبُو مَالِكٍ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالسُّدِّيُّ، وقَتَادَةُ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ، والمِنْهَال بْنُ عَمْرٍو، وَغَيْرُهُمَا: مِثْلُ تَجَعُّدِ الْمَاءِ وَالرَّمْلِ وَالزَّرْعِ إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ، فَيَنْسِجُ بَعْضُهُ بَعْضًا طَرَائِقَ طَرَائِقَ، فَذَلِكَ الْحُبُكُ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّة، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمُ الْكَذَّابَ الْمُضِلَّ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ وَرَائِهِ حُبُك حُبُك» يَعْنِي بِالْحُبُكِ: الْجُعُودَةَ .

وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ : الشِّدّة. وقال خصيف: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ ذات الصَّفاقة.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ حُبِكَتْ بِالنُّجُومِ.

وَقَالَ قَتَادَةَ: عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْد، عَنْ مَعْدان بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ عَمْرٍو الْبِكَالِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾: يَعْنِي: السَّمَاءَ السَّابِعَةَ.

وَكَأَنَّهُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَرَادَ بِذَلِكَ السَّمَاءَ الَّتِي فِيهَا الْكَوَاكِبُ الثَّابِتَةُ، وَهِيَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْهَيْئَةِ فِي الْفَلَكِ الثَّامِنِ الَّذِي فَوْقَ السَّابِعِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ تَرْجِعُ إِلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْحُسْنُ وَالْبَهَاءُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَإِنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا مُرْتَفِعَةٌ شَفَّافَةٌ صَفِيقَةٌ، شَدِيدَةُ الْبِنَاءِ، مُتَّسِعَةُ الْأَرْجَاءِ، أَنِيقَةُ الْبَهَاءِ، مُكَلَّلَةٌ بِالنُّجُومِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، مُوَشَّحَةٌ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ أَيْ: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرَّسُلِ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مُضْطَرِبٍ، لَا يَلْتَئِمُ وَلَا يَجْتَمِعُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ يَعْنِي مَا بَيْنَ مُصَدِّقٍ بِالْقُرْآنِ وَمُكَذِّبٍ بِهِ.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ أَيْ: إِنَّمَا يُرَوَّجُ عَلَىٰ مَنْ هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ إِنَّمَا يَنْقَادُ لَهُ وَيَضِلُّ بِسَبَبِهِ وَيُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ ضَالٌّ غَمْر، لَا فَهْمَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾[الصافات].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ : يَضِلُّ عَنْهُ مَنْ ضَلَّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يُصْرَفُ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ مَنْ كَذَّبَ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْكَذَّابُونَ. قَالَ: وَهِيَ مِثْلُ الَّتِي فِي عَبَسَ: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧﴾ [عبس]، وَالْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُبْعَثُ وَلَا يُوقِنُونَ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠﴾ أَيْ: لُعِنَ الْمُرْتَابُونَ.

وَهَكَذَا كَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ فِي خُطَبِهِ: هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ أَهْلُ الْغِرَّةِ وَالظُّنُونِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: فِي الْكُفْرِ وَالشَّكِّ غَافِلُونَ لَاهُونَ.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾: وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا وَشَكًّا وَاسْتِبْعَادًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يُعَذَّبُونَ، قَالَ مجاهد: كما يُفْتَنُ الذَّهَبُ عَلَى النَّارِ.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ آخَرُونَ كَمُجَاهِدٍ أَيْضًا، وَعِكْرِمَةَ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِي، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يُحْرَقُونَ.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ: حَرِيقَكُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ: عَذَابَكُمْ.

﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَصْغِيرًا.

نقتصر -إن شاء الله- علىٰ هٰذه الكتب التفسير، ثم يليه «الفرقان»، ثم يليه «زاد المعاد»، ثم يليه «البخاري»، ثم آخر شيء «التّدمرية»، نقتصر علىٰ هٰذه الخمسة إن شاء الله، نعم و«الحموية» إن شاء الله.

وفقكم الله، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الدرس الثاني]

قال المصنف:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُتَّقِينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيْ عَامِلِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنَ الْفَرَائِضِ..

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ أَيْ: قَبْلَ أَنْ يُفْرِضَ عَلَيْهِمُ الْفَرَائِضَ. كَانُوا مُحْسِنِينَ فِي الْأَعْمَالِ أَيْضًا. ثُمَّ رَوَىٰ عَنِ ابْنِ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا مِهْرَان، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِي عُمَرَ، عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قَالَ: مِنَ الْفَرَائِضِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ قَبْلَ الْفَرَائِضِ يَعْمَلُونَ. وَهَذَا الْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ، وَلَا يَصِحُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَدْ رَوَاهُ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ أَبِي عُمَرَ الْبَزَّارِ، عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَذَكَرَهُ. وَالَّذِي فَسَّرَ بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ فَالْمُتَّقُونَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ فِي الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ، ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، أَيْ: مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[الحاقة].

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ بَيَّنَ إِحْسَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ فَقَالَ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ، تَقْدِيرُهُ: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ لَا يَهْجَعُونَهُ. قَالَ ابْنُ عباس: لم تكن تَمْضِي عَلَيْهِمْ لَيْلَةٌ إِلَّا يَأْخُذُونَ مِنْهَا وَلَوْ شَيْئًا. وَقَالَ قَتَادَةُ، عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: قَلَّ لَيْلَةٌ تَأْتِي عَلَيْهِمْ لَا يُصَلُّونَ فِيهَا للهِ عَزَّوَجَلَّ، إِمَّا مِنْ أَوَّلِهَا وَإِمَّا مِنْ أَوْسَطِهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَلَّ مَا يَرْقُدُونَ لَيْلَةً حَتَّىٰ الصَّبَاحِ لَا يَتَهَجَّدُونَ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ:

كَانُوا يُصَلُّونَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعَشَاءِ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ، كَانُوا لَا يَنَامُونَ حَتَّىٰ يُصَلُّوا الْعَتَمَةَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، تَقْدِيرُهُ: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ هُجُوعُهُمْ وَنَوْمُهُمْ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ : كَابَدُوا قِيَامَ اللَّيْلِ، فَلَا يَنَامُونَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَقَلَّهُ، وَنَشِطُوا فَمَدُّوا إِلَىٰ السَّحَرِ، حَتَّىٰ كَانَ الِاسْتِغْفَارُ بِسَحَرٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾: كَانُوا لَا يَنَامُونَ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ يَقُولُ: لَسْتُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَقُولُ: عَرَضْتُ عَمَلِي عَلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَوْمٌ قَدْ بَايَنُونَا بَوْنًا بَعِيدًا، إِذَا قَوْمٌ لَا نَبْلُغُ أَعْمَالَهُمْ، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَعَرَضْتُ عَمَلِي عَلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ يُكَذِّبُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَبِرُسُلِ اللهِ، يُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَوَجَدْتُ مِنْ خَيْرِنَا مَنْزِلَةً قَوْمًا خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ لِأَبِي: يَا أَبَا أُسَامَةَ، صِفَةٌ لَا أَجِدُهَا فِينَا، ذَكَرَ اللهُ قَوْمًا فَقَالَ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾، وَنَحْنُ وَاللهِ قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا نَقُومُ. فَقَالَ لَهُ أَبِي: طُوبَىٰ لِمَنْ رَقَدَ إِذَا نَعَسَ، وَاتَّقَىٰ اللهَ إِذَا اسْتَيْقَظَ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ. فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ».

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، حَدَّثَنِي حُيَيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا». فَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ للهِ قَائِمًا، وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

وَقَالَ مَعْمَرٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ كان الزهري والحسن يقولان: كَانُوا كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يُصَلُّونَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِي: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾: مَا يَنَامُونَ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا﴾ ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وهٰذا القَوْلُ فِيهِ بُعْدٌ وَتَعَسُّفٌ.

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يُصَلُّونَ. وَقَالَ آخَرُونَ: قَامُوا اللَّيْلَ، وَأَخَّرُوا الِاسْتِغْفَارَ إِلَى الْأَسْحَارِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران]، فَإِنْ كَانَ الِاسْتِغْفَارُ فِي صَلَاةٍ فَهُوَ أَحْسَنُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ[1] وَغَيْرِهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ».

وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ: أَنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف:٩٨]، قَالُوا: أَخَّرَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛ فهٰذه الآيات فيها صفة أهل الجنة، وفيها نعوتهم التي كانت سببا لدخولهم جنة الرحمٰن -جل وعلا-، فوصفهم الله -جل علا- بعدة صفات فقال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

واسم ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ في القرآن:

يكون **لمن ترك الشِّرك وأخذ بالتّوحيد**، وهٰذا أدنىٰ درجات التقوىٰ وهي التي خُوطب بها الناس جميعا؛ في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾[الحج]؛ يعني اتّقوه بتوحيده والكفر بالطاغوت والبراءة من الشِّرك وأهله.

والمتّقون أيضًا هم من اتّقوا الله -جل علا- بترك المحرّمات وبالإقبال علىٰ ما فرض الله جل وعلا.

---

(١) «صحيح البخاري»، حديث رقم (١١٤٥)، «صحيح مسلم»، حديث رقم (٧٥٨).

وأيضًا المتّقون منهم سابق بالخيرات.

فالمتقي في القرآن يشمل هٰذه الثلاث جميعًا، قد يكون المتقي ممن خلط عملا صالحا وآخر سيِّئًا؛ لكن هنا في هٰذه الآيات خصّهم -خصّ المتقين- بصفات المسابقين بالخيرات، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ يعني في جنات خاصة لمن هٰذا وصفه، وإلا فإنّ من المعلوم أن كل من وحّد الله -جل علا- فترك الشرك بالله طاعة لله -جل علا- فإنّه من أهل الجنة بوعده الصّادق -جل علا- وإن تأخر دخلوه إليها؛ لكن هٰذا الذي ذكر -جل وعلا- هنا إنما هو في أناس مخصوصين لهم منزلة خاصّة في الجنة.

ولهٰذا نكّر لفظ الجنّات فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾، ومن فوائد التّنكير: التّعظيم وتفخيم الأمر وتهويله لما هو عليه من عظم الشأن ورِفعة المكانة.

وصَف الله المتقين بقوله: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾، وقوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ لأهل العلم فيها تفسيران:

- منهم من قال: إن الأخذ في الدنيا.
- ومنهم من قال: إن الأخذ في الآخرة في الجنة.

وسياق الآيات يدل على أن الأخذ في الجنّة، ولهٰذا قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ يعني قبل أخذهم للنعيم كانوا محسنين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾، ثم فسر.

وأما الأخذ في الدنيا فكما سمعت في التفسير فإنّه الأخذ بحقوق الله -جل علا- وحقوق عباده كما قال سبحانه: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾[1] ونحو ذلك، والأخذ إذا أمر به فمعناه امتثال الأمر واجتناب النهي.

قال سبحانه: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وإذا كان في الجنة هٰذا الأخذ، فمعنى وصفهم بالأخذ أنهم راضون به مطمئنون إليه آنسون به، قال: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يعني عن رضًا وطمأنينة وشكر لله وحمد له، وهٰذا يدل على أنهم كانوا قبل ذلك خائفين أن لا يكونوا من أهل الجنة.

قال: ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ والإحسان درجات وفسّره هنا بالمسابقة في أعمال صالحات فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) سورة: البقرة الآيات (٦٣، ٩٣)، الأعراف الآية (١٧١).

وقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ كما سمعت أيضا اختلفوا فيها على قولين:

منه ما هو راجع إلى فيهم معنى ﴿مَا﴾، ومن قال: إنّ ﴿مَا﴾ نافية فصار معنى الآية عنده أنه لابد أن يأخذ من الليل شيئا في طاعة واجبة أو مستحبّة، قال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ يعني ذلك القليل لا يهجعون فيه فلابد أنّ لهم شيئا من الطاعة في الليل.

والقول الثاني أن ﴿مَا﴾ هنا مصدرية يعني كانوا قليلا من الليل هجوعهم؛ يعني أن أكثر الليل يقومون فيه ويتعبّدون الله فيه، وهذه صفة النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وصفة أصحابه في سورة المزمّل كما في قوله جل علا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾[المزمل:٢٠] الآية.

وقوله جل وعلا: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فيه ذكر مزية الاستغفار في السّحر.

والسّحر يشمل ما قبل أذان الفجر؛ يعني ما قبل طلوع الفجر الصادق بقليل ويشمل ما بعده.

وأصله من جهة ضيق التنفّس -يعني من جهة الخفاء وضيق التنفس-، والليل له تنفّس والصبح كذلك له تنفّس، فوقت دخول النهار في الليل وأخذ النهار من الليل وابتداؤه ما يقارب ذلك؛ هذا سحر، فهو من الخفاء فإذا قارب فهو ذلك الوقت.

لهذا بعض أهل العلم يرى السحر ما قبل طلوع الفجر الصادق بقليل، ومنهم من يرى أنه ما بينه وبين صلاة الفجر.

وهذا على العموم فيه فضيلة الاستغفار في هذا الوقت.

وإذا كان كذلك فإن الاستغفار في هذا الوقت أفضل من غيره؛ لأنّه صفة أهل الإيمان، فقبل صلاة الفجر وبعد الأذان وما قبل الأذان بقليل أفضل ما يعمل في هذا الوقت الاستغفار؛ لأنّ الله وصف أهل الإيمان وأهل الجنة بأنهم يستغفرون في هذا الوقت، فقال -جل علا- في سورة آل عمران: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾، وقال هنا: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ولهذا قال جماعة من أهل العلم من المحققين: إنّ الاستغفار في هذا الوقت أفضل من قراءة القرآن، فإن قراءة القرآن أفضل بعامة؛ لكن قد يَعرض على الأوقات ما يجعل شيئا فيها أفضل من قراءة القرآن، فما قبل الأذان بقليل، وما بعد الأذان إلى صلاة الفجر الأفضل فيه الاستغفار والدعاء والتبتّل إلى الله جل وعلا، والخشوع وأشباه ذلك من الذِّكر.

وقوله: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، مجيء ﴿هُمْ﴾ هنا بين شبه الجملة والفعل يدل علىٰ تحققهم بهـٰذا الوصف، فإن مجيء الضمير في مثل هـٰذا يدلّ علىٰ تحقق الوصف وتأكده فيهم، والاستغفار هو طلب الغَفْر وهو ستر أثر الذنب والتقصير في الدنيا والآخرة؛ لأن الذنب له أثره في الدنيا بوقوع العقوبة أو الخِزي أو ظهور أثر الذّنب علىٰ العبد، وله أثره في الآخرة بالعقوبة والنكال، فإذا غفر الله -جل علا- للعبد فإنه يمحو عنه أثر الذنب في الدّنيا من العقوبة أو الخِزي أو ما شابه ذلك، ويمحو عنه أثر الذنب في الآخرة في العقوبة والعذاب أو الخزي أيضا.

ولهـٰذا صار الاستغفار غير التوبة، وهنا وصفهم بالاستغفار، والاستغفار فيه معاني كثيرة متعلقة بصفات الله -جل علا- وبأسمائه.

ففي الاستغفار اعتقاد إطّلاع الله -جل علا- وعلمه بحال العبد.

وفي الاستغفار افتقار العبد إلىٰ ربه -جل علا- وعلم العبد بأنّ الله بيده كل شيء.

وفي الاستغفار اعتقاد اسم الله الغفار الرحيم.

وفي الاستغفار اعتقاد صفة الله -جل علا- أنه شديد العقاب.

وفي الاستغفار أيضا اعتقاد ضعف العبد أمام ربه -جل علا- كما ثبت في الحديث الصحيح أنه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- قال: «لو لم تذنبوا لأتىٰ الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر بهم».

وهـٰذا لأن الاستغفار فيه من معرفة الله -جل علا- والعلم به وظهور آثار أسمائه وصفاته ما ليس في غيره، فهو من هـٰذه الجهة أرفع من التوبة، والتوبة إذا قرنت بالاستغفار كانت كمالا، ولهـٰذا -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- كان يُكثر أن يقول في المجلس الواحد: «ربي اغفر لي وتب علي، ربي اغفر لي تب علي» حتىٰ عُدَّ له مائة مرة، وقال -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم والليلة أكثر من مائة مرة» عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وذلك لعظيم علمه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- بما ينفعه وبما يكون منه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- تذلّلا لله وتعرضا لآثار أسمائه وصفاته

قال المصنف:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ لَمَّا وَصَفَهُمْ بِالصَّلَاةِ ثَنَّىٰ بِوَصْفِهِمْ بِالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ وَالصِّلَةِ، فَقَالَ:: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ أَيْ: جُزْءٌ مَقْسُومٌ قَدْ أَفْرَزُوهُ ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، أَمَّا السَّائِلُ فَمَعْرُوفٌ، وَهُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُ بِالسُّؤَالِ، وَلَهُ حَقٌّ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا وَكِيع وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ يَعْلَىٰ بْنِ أَبِي يَحْيَىٰ، عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهَا الْحُسَيْنِ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَىٰ فَرَسٍ».

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، بِهِ ثُمَّ أَسْنَدَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. وَرُوِيَ مِنْ حَدِيثِ الهِرْماس بْنِ زِيَادٍ مَرْفُوعًا.

وَأَمَّا ﴿الْمَحْرُومِ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ: هُوَ الْمُحَارِفُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ. يَعْنِي: لَا سَهْمَ لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ، وَلَا كَسْبَ لَهُ، وَلَا حِرْفَةَ يَتَقَوَّتُ مِنْهَا.

وَقَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ: هُوَ المحارَف الَّذِي لَا يَكَادُ يَتَيَسَّرُ لَهُ مَكْسَبُهُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ مَالٌ إلا ذهب، قضىٰ الله له ذلك.

وَقَالَ أَبُو قِلابَة: جَاءَ سَيْلٌ بِالْيَمَامَةِ فَذَهَبَ بِمَالِ رَجُلٍ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: هَذَا الْمَحْرُومُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَسَعِيدُ بْنُ المسيَّب، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَنَافِعٌ -مَوْلَىٰ ابْنِ عُمَرَ- وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ﴿الْمَحْرُومُ﴾: الْمَحَارِفُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ، وَالزُّهْرِيُّ: ﴿المحروم﴾ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا، قَالَ الزُّهْرِيُّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بالطوَّاف الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًىٰ يُغْنِيهِ، وَلَا يُفطن لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ».

وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ أَسْنَدَهُ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»[1] مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الَّذِي يَجِيءُ وَقَدْ قُسِّم الْمَغْنَمُ، فَيُرْضَخُ لَهُ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا قَالَ: كُنَّا مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَجَاءَ

---

(١) «صحيح البخاري»، حديث رقم (١٤٧٦)، «صحيح مسلم»، حديث رقم (١٠٣٩).

كَلْبٌ فَانْتَزَعَ عُمَرُ كَتِفَ شَاةٍ فَرَمَىٰ بِهَا إِلَيْهِ، وَقَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّهُ الْمَحْرُومُ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ مَا الْمَحْرُومُ.

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمَحْرُومَ: هُوَ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ، قَدْ ذَهَبَ مَالُهُ، سَوَاءٌ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الْكَسْبِ، أَوْ قَدْ هَلَكَ مَالُهُ أَوْ نَحْوُهُ بِآفَةٍ أَوْ نَحْوِهَا.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ؛ أَنَّ رسول الله ﷺ بعث سَرِيَّةً فَغَنِمُوا، فَجَاءَ قَوْمٌ لَمْ يَشْهَدُوا الْغَنِيمَةَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ هَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ مَدَنِيَّةٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ مَكِّيَّةٌ شَامِلَةٌ لِمَا بَعْدَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ أَيْ: فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ، مِمَّا قَدْ ذَرَأَ فِيهَا مِنْ صُنُوفِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْمِهَادِ وَالْجِبَالِ، وَالْقِفَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَأَلْوَانِهِمْ، وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْقُوَىٰ، وَمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَالْحَرَكَاتِ، وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهِمْ مِنَ الْحِكَمِ فِي وَضْعِ كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ : قَالَ قَتَادَةُ: مَنْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ وَلُيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ يَعْنِي: الْمَطَرَ، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ يَعْنِي: الْجَنَّةَ. قَالَهُ ابن عباس، وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: قَرَأَ وَاصِلٌ الْأَحْدَبُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ فَقَالَ: أَلَا إِنِّي أَرَىٰ رِزْقِي فِي السَّمَاءِ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ فِي الْأَرْضِ؟ فَدَخَلَ خَرِبَةً فَمَكَثَ فِيهَا ثَلَاثًا لَا يُصِيبُ شَيْئًا، فَلَمَّا أَنْ كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذَا هُوَ بِدَوْخَلَةٍ مِنْ رُطَبٍ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ أَحْسَنُ نِيَّةً مِنْهُ، فَدَخَلَ مَعَهُ فَصَارَتَا دَوْخَلَتَيْنِ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبَهُمَا حَتَّىٰ فَرَّقَ الْمَوْتُ بَيْنَهُمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ قَسِمٌ تَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَهُوَ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، فَلَا تَشُكُّوا فِيهِ كَمَا لَا تَشُكُّوا فِي نُطْقِكُمْ حِينَ تَنْطِقُونَ. وَكَانَ مُعَاذٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا حَدَّثَ بِالشَّيْءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا.

قَالَ مُسَدَّدٌ، عَنِ ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

«قَاتَلَ اللهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوا».

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ بُنْدَار، عَنِ ابْنِ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ، فَذَكَرَهُ مُرْسَلًا.

قوله جل وعلا: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾.

الأموال: جمع مال، وهي كل ما يُتَمَوَّل، وليس خاصا بالنقدين أو ما قام مقامهما من أنواع العُمْلات؛ بل المال كل ما يتموّل؛ يعني كل ما يحفظه المرء فيعده لحاجته، فيدخل في المال، في العقار، ويدخل فيه المنقولات، ويدخل فيه المطعومات، ويدخل فيه الملبوس وأشباه ذلك.

وأحوج ما يكون الناس إلىٰ المال الذي هو النّقد، فهٰذا ظاهر في دخوله في هٰذه الآية وأنه مطلوب مقصود.

قال سبحانه: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ وهٰذه الآية مكية كما هو معلوم، وهٰذا دليل علىٰ أنَّ في كل مالٍ حقّا، وأنه كان ذلك قبل فرض الزكاة، ففي كل مال حق، وعلىٰ كلِّ مسلم حق في ماله غير الزكاة.

فالزّكاة نوع من الحق الواجب الذي يجب أداؤه للأصناف المذكورة؛ لكن في المال حق أيضا سوىٰ الزكاة، وذلك من جهة أداء الحقوق الواجبة في المال من النفقة –مثلا– علىٰ الأهل والولد، أو علىٰ الأقارب الذين تجب نفقتهم عليه، أو علىٰ بذل الماعون، أو علىٰ الإعارة، أو ما أشبه ذلك مما هو مفصّل في كتب الفقه.

فليس حق المال هو الزكاة فقط؛ بل الزكاة نوع من أنواع الحقوق، لكنّها هي ركن الإسلام وهي قرينة الصلاة، والزكاة أمرها عظيم من جهة نِصابها، ومن جهة النفقة في مصارفها الثّمانية التي حُددت في القرآن.

أما أنواع النفقات الأخرىٰ فهناك ما دل علىٰ وجوب النفقة في مثل قول الله جل علا: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَ﴾[البقرة:٢٣٣]، فأوجب من النّفقة الرزق والكسوة علىٰ الوالد، وكذلك علىٰ الوالدة حين لا يُنفق الوالد أو حين موته أو ما أشبه ذلك .

وقوله هنا: ﴿حَقّٞ﴾ لم يجعله حقا معلوما، وفي آية المعارج جعله حقا معلوما فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾[المعارج]، والآية مكية والحق المعلوم هو ما كان معلومًا عندهم،

والعلم هنا هو:

إما علمه هو بما أخرجه من ماله فصار معلوما لديه؛ لأنه يخرج من ماله كل سنة كذا وكذا، أو يخرج لأهل الحاجات كذا وكذا من النِّسبة أو من قدر المال فيصبح معلوما بالنسبة لديه.

أو يكون معلوما بما هو مأمور به من جهة الشّرع، أو بما جرىٰ عليه العرف في مكة.

فالآيات تدلّ علىٰ أنه كان قبل نُزول فرضية الزّكاة كان هناك حقا معلومًا، وهـٰذا الحق المعلوم:

- إما بأمر النبي ﷺ.
- وإما بما دل عليه العرف في ذلك الزمان.
- أو بما علمه هو فأخرجه وألزم نفسه به.

وهـٰذا الحق المعلوم هو الذي فُسّر بأنه الزكاة في مكة؛ فإنه يزكي ويطهر وهـٰذا معنىٰ قوله في سورة المزمّل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾[المزمل:٢٠]. مع كون الآية مكية، فذُكرت فيها الزكاة والمراد بالزكاة هناك إخراج الحق المعلوم الذي في هـٰذه الآيات ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾، ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ السّائل معروف هو من يسأل يطلب حاجته، والسائل قد يكون محقا وقد يكون غير محق، فإذا كان محقا فما يفلح من رده إذا كان له حقّ فيما أوجب الله جل وعلا، وإذا كان غير محق أيضا وظهر لصاحب المال أن هـٰذا غير محق في سؤاله فهنا لا يجب عليه أن يعطيه؛ لكن إن أعطاه دفعا لمذلة السؤال فهـٰذا فيه خروج له مما تُوعِّد به من منع سائلا.

والمحروم الصّواب فيه هو كل من حُرم المال إما من سبب من نفسه كأهل الحرف الذين لا يجدون كفايتهم، وإما بسبب من غيره الذي لا يعطىٰ، القريب الذي لا يعطيه قريبه أو صاحب الحاجة الذي لا يعطيه أصحاب الأموال حاجتهم وأشباه ذلك، ويدخل فيه أهل البيت الذين يمنعون ما وجب الله -جل علا- لهم أو لا يعطون كما هو موجود في بعض البلاد أنه لا يقام لهم بحاجاتهم، فهؤلاء نوع من أنواع المحرومين فيعطون من الصدقة، فكل من كان محرومًا من المال وآكدهم من لا يسأل النّاس شيئا، فهؤلاء لهم حق خاص في ذلك كما وصف الله أهل الإيمان بقوله: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾.

وأما قوله جل وعلا: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ فهـٰذا ظاهر جدًّا من كون أن الأرض فيها أنواع من

الآيات التي تدل علىٰ وحدانية الله -جل علا- في ربوبيته، وأنه -جل وعلا- الذي خلقها وهو الذي مهّد السبل فيها وشق أوديتها وأقام جبالها -جل وعلا- وأخرج أشجارها وثمارها ﷻ، فمن تأمل في الأرض وجد أن كل شيء فيها يدل علىٰ وحدانية الله -جل علا- كما قال القائل:

وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه الواحد

وثبت عنه - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أنه قال: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا»، التفكّر في الأرض وما فيها هٰذا يحدث اليقين كما قال سبحانه هنا: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ يعني أن الموقن يستفيد من الآيات، وكذلك النظر في هٰذه الآيات يحدث اليقين، فاليقين سبب ونتيجة أيضًا، فمن تأمل ونظر تيقن، ومن تيقّن تأمّل ونظر، فهي سبب ونتيجة فتكون اللام هنا غائية أو تكون اللام هنا المعروفة؛ يعني أنها آيات لهؤلاء، يعني هؤلاء هم المختصون بكون ما في الأرض آية لهم بكونهم المنتفعين.

قال جل علا بعدها: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ وهنا اختلف العلماء في الوقف علىٰ وجهين:

- منهم من يجعل ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ تابع لما قبلها في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ يعني: وفي أنفسكم آيات للموقنين. فيكون الوقف علىٰ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾.

- ومن أهل العلم من يرىٰ أن تعلق البصر بما في الأنفس فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ فتكون جملة مستقلة؛ يعني أنه يطلب البصر والنظر والتدبر في الأنفس، وليس ما في الأنفس آيات للموقنين وتلك ما في الأرض.

وهٰذا وهٰذا كلاهما صواب، فإن ما في الأنفس آيات للموقنين؛ لأنّ الله -جل وعلا- جعلها كذلك قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾[الروم٢٣]، وقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾[الروم:٢١]، وأشباه ذلك من النّصوص.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾، قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ المقصود لها الجنة، ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ يعني من المطر ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أيضا لأهل الإيمان من الجنة والنعيم.

وهٰذه استدل بها كثير من أهل العلم؛ بل جمهور أهل العلم علىٰ أن الجنة موجودة الآن في السماء في العلو، وأن النار موجودة في الأرض في داخل الأرض.

قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ وهٰذا لاشك أن الواجب علىٰ أهل الإيمان أن يتيقنوا وأن يكون ما عندهم من حقائق الإيمان أنها حقّ لا مرية فيه، قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ يعني إنّ القرآن حق مثلما أنكم تنطقون، وإنّ ما في الجنة لأهل الإيمان حق مثل ما أنكم تنطقون، وأن البعث حق وآتٍ مثل ما أنكم تنطقون، فهو حق لا مرية فيه، كما لا مرية فيمن يحدثك وينطق أمامك بالكلام.

[الدرس الثالث]

قال المصنف:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ «هُودٍ» وَ«الْحِجْرِ» أَيْضًا. وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أَيِ: الَّذِينَ أَرْصَدَ لَهُمُ الْكَرَامَةَ. وَقَدْ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَىٰ وُجُوبِ الضِّيَافَةِ لِلنَّزِيلِ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ التَّنْزِيلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ الرَّفْعُ أَقْوَىٰ وَأَثْبَتُ مِنَ النَّصْبِ، فَرَدُّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْلِيمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا﴾[النساء:٨٦]، ، فَالْخَلِيلُ اخْتَارَ الْأَفْضَلَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ: جِبْرِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمِيكَائِيلُ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي صُوَرِ شُبَّانٍ حِسَانٍ عَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أَيِ: انْسَلَّ خُفْيَةً فِي سُرْعَةٍ، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ أَيْ: مِنْ خِيَارِ مَالِهِ. وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾[هود]، أَيْ: مَشْوِيٌّ عَلَى الرَّضْفِ، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَدْنَاهُ مِنْهُمْ، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾: تَلَطُّفٌ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرْضٌ حَسَنٌ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتَظَمَتْ آدَابَ الضِّيَافَةِ؛ فَإِنَّهُ جَاءَ بِطَعَامِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بِسُرْعَةٍ، وَلَمْ يَمْتَنَّ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا فَقَالَ: «نَأْتِيكُمْ بِطَعَامٍ؟» بَلْ جَاءَ بِهِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءٍ، وَأَتَىٰ بِأَفْضَلِ مَا وَجَدَ مِنْ مَالِهِ، وَهُوَ عِجْلٌ فَتِيٌّ سَمِينٌ مَشْوِيٌّ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، لَمْ يَضَعْهُ، وَقَالَ: اقْتَرِبُوا، بَلْ وَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَمْرًا يَشُقُّ عَلَىٰ سَامِعِهِ بِصِيغَةِ الْجَزْمِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الْعَرْضِ وَالتَّلَطُّفِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ الْيَوْمَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَفَضَّلَ وَتُحْسِنَ وَتَتَصَدَّقَ، فَافْعَلْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: هَذَا مُحَالٌ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَىٰ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود]، أَيِ: اسْتَبْشَرَتْ بِهَلَاكِهِمْ؛ لِتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ عَلَى اللهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ بَشَّرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ

إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[هود]؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ فَالْبِشَارَةُ لَهُ هِيَ بِشَارَةٌ لَهَا؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ مِنْهُمَا، فَكُلٌّ مِنْهُمَا بُشِّرَ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أَيْ: فِي صَرْخَةٍ عَظِيمَةٍ وَرَنَّةٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَهِيَ قَوْلُهَا: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾[هود:٧٢].

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أَيْ: ضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَىٰ جَبِينِهَا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ سَابِطٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَطَمَتْ، أَيْ تَعَجُّبًا كَمَا تَتَعَجَّبُ النِّسَاءُ مِنَ الْأَمْرِ الْغَرِيبِ، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ أَيْ: كَيْفَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ، وَقَدْ كنتُ فِي حَالِ الصِّبَا عَقِيمًا لَا أَحْبَلُ؟.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْكَرَامَةِ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛ فهٰذه الآيات مشتملة علىٰ قصة إبراهيم عليه السلام مع أضيافه من الملائكة، فقال جل علا: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وهؤلاء هم الملائكة، أرسلهم الله جل علا إلىٰ إبراهيم في صورة شبَّان حسان لطاف ليعظُم بهم الابتلاء، ووصفهم الله جل علا بصفتين:

الأولىٰ: أنهم ضيف.

والثانية: أنهم مكرمون.

وأما كونهم ضيفا؛ فإن إبراهيم عليه السلام لم يكن يعلم حالهم، ولهٰذا استغرب أنهم لا يأكلون، ولو علم أنهم من الملائكة لما قدم لهم شيئا كما قال هنا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ لأنهم لم تمتد أيديهم إلىٰ الطعام كما في آية هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

والوصف الثاني أنهم مُكرمون، وهٰذا يتضمن رِفعتهم عن جنسهم، وتميزهم عن جنسهم بأنواع الصفات المحمودة؛ لأن الكريم هو المتميز عن جنسه بأنواع الصفات المحمودة؛ وهٰذا يعني أنّهم

مطهَّرون من الأدناس، ومن الصِّفات المذمومة التي تكون عادةً في النّفس.

قال جل وعلا: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾، و﴿إِذْ﴾ هنا بمعنىٰ حين؛ يعني: هل أتاك حديثهم حين دخلوا عليه، كأن القصة بدأت بالدخول ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾، وكلمة ﴿سَلَٰمٌ﴾ هـٰذه اسم مصدر بمعنىٰ التسليم، فتقول فيما يقاس: سلَّمَ سلاما أي تسليما، وطلّق طلاقا أي تطليقا.. وأشباه ذلك، فنصبها علىٰ أنها مصدر سلّم سلاما أو نسلم سلاما، ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ يعني نسلم سلاما، وهـٰذا معناه يعني التعبير بالمصدر يعني معناه الكمال؛ يعني نسلم سلاما كاملا فلا يأتيك منا إلا السلامة ولن يحصل لك منا إلا السلامة.

﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ وهو رد عليهم بالرفع؛ يعني بالجملة الاسمية، وهم سلموا عليه بالجملة الفعلية، معلوم أن الجملة الاسمية تَفْضُل الجملة الفعلية، ولهـٰذا قال لك ابن كثير: (الرَّفْعُ أَقْوَىٰ وَأَثْبَتُ مِنَ النَّصْبِ)؛ يعني أن الجملة الاسمية أفضل من الجملة الفعلية في ذلك لأنها مفيدة بأنواع من المعاني أعظم في هـٰذا المقام من الجملة الفعلية.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ يعني سلام عليكم أو عليكم سلام ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأنه نكرهم فلا يعرفهم، ليسوا أهل بلد وليس عليهم أثر سفر، فاستغرب حالهم.

قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ كما ذكر أنّ الأئمة كأحمد وأهل الحديث يرون وجوب الضيافة، والضيافة تحصل بما فيه إطعام الضّيف وإيوائه ولو بدون ذبح؛ ولكن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بذبح عجلٍ سمين.

وهـٰذا الوجوب إنما يكون في بلد ليس فيه أماكن ينزل بها الأضياف؛ يعني في بلد ليس فيه خانات ولا فنادق وأشباه ذلك، أو أماكن معدّة بالأجرة، فإن كان فلا وجوب بل للاستحباب، كما ذهب إليه أحمد وجماعة من أهل الحديث.

قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ يعني قد شُوي وانتهي منه ويصلح للأكل، والعجل معروف أنه من البقر.

قال: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، في قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أنّ المستحبّ في الإطعام أن يقرَّب الطعام إلىٰ الضيف، لا أن يُنقل الضيف إلىٰ الطعام؛ لأن هـٰذا من كمال الأدب معه، لا أن يقال له انتقل

من مكان إلىٰ مكان لأجل الطّعام.

لكن جرت العادة عندنا وفيما قبل ذلك أنه يُنقل الضيف إلىٰ مكان الطعام، وهـٰذا عُرف لا حرج فيه؛ لأنّ الضيف لا يرىٰ في هـٰذا إهانة بحقه، فالعرف عندهم أنّ من تمام الإكرام أن يقرّب الطعام إلىٰ الضيف.

قال: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ يعني خوفًا؛ لأنه رأىٰ أيديهم لا تصل إليه، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ والغلام العليم هو إسحاق عليه السلام.

وكلّ موطن في القرآن وُصف فيه ولد إبراهيم بأنه عليم فالمراد به إسحاق.

وكل موطن في القرآن وُصف فيه ولد إبراهيم بأنه حليم فإنه إسماعيل عليه السلام.

ولهـٰذا كان الصحيح أن الذَّبيح هو إسماعيل عليه السلام لا إسحاق كما جاء في حديث ضعيف[1] أن النبي ﷺ قال: «أنا ابن الذبيحين»؛ يعني أباه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- وإسماعيل عليه السلام.

فإسحاق يوصف بأنه عليم، وإسماعيل يوصف بأنه حليم؛ لأنه بلغ من حلمه أنه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾[الصافات].

قال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾، ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ يعني في صرخة عظيمة كيف تلد وهي عجوز، ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ يعني صكة يعني صيحة عظيمة من الاستعجاب، استعجاب هـٰذا الكلام، ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ من العجب ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ يعني كيف تلد وهي قد عقمت ولا تصلح للإنجاب، فبيّنوا لها أن هـٰذا أمر خارق لما جرت به عادة النساء.

فقال جل وعلا: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ يعني هكذا قال الله جل علا الذي يتصرف في الملكوت، الذي هو ربك ورب كل شيء، هكذا قال؛ بأنّه سوف تلدين ابنًا ويكون غلاما عليمًا.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ الذي بلغ من الحكمة مطلَقَها، وأعظم ما تدلّ عليه، وكذلك علمه كامل بكل شيء ﷻ لا يخفىٰ عليه دبيب النملة السوداء علىٰ الصفاة السوداء في ظلمة الليل، وهو سبحانه حكيم يقدر الأمور ويضعها مواضعها اللائقة بالغايات المحمودة منها.

---

(١) انظر السلسلة الضعيفة للألباني برقم (١٦٧٧).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾

قَالَ اللهُ مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾[هود]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) ﴾؟ أَيْ: مَا شَأْنُكُمْ وَفِيمَ جِئْتُمْ؟.

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ يَعْنُونَ قَوْمَ لُوطٍ.

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً ﴾ أَيْ: مُعَلَّمَةً ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾ أَيْ: مُكْتَتَبَةٌ عِنْدَهُ بِأَسْمَائِهِمْ، كُلُّ حَجَرٍ عَلَيْهِ اسْمُ صَاحِبِهِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴾. وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) ﴾، وَهُمْ لُوطٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ. ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ حْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى رَأْيِ الْمُعْتَزِلَةِ، مِمَّنْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مُسَمَّى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ. وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا مُؤْمِنِينَ، وَعِنْدَنَا أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ لَا يَنْعَكِسُ، فَاتَّفَقَ الِاسْمَانِ هَاهُنَا لِخُصُوصِيَّةِ الْحَالِ، وَلَا يَلْزَمُ ذَلِكَ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾ أَيْ: جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً، لِمَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَحِجَارَةِ السِّجِّيلِ، وَجَعَلْنَا مَحَلَّتَهُمْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً، فَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾.

هٰذه الآيات واضحة؛ ولكن في قوله جل وعلا: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) ﴾ فيها دليل علىٰ أنهم كانوا مؤمنين؛ لأن الله سبحانه أخرج من فيها من المؤمنين فدل علىٰ أنهم مؤمنون، ثم قال: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ يعني أنهم مسلمون أيضا.

وهٰذا علىٰ القاعدة المعروفة أن من كان مؤمنا فإنه مسلم؛ لأنهم وصفوا بالإيمان الباطن ووصفوا بالإسلام وهٰذا أكمل.

ومن رأىٰ من العلماء أن الإيمان والإسلام شيء واحد بدلالة هٰذه الآية فهٰذا ليس بجيد؛ بل هو غلط، لأن الله جل علا في سورة الحجرات فرّق ما بين الإيمان والإسلام فقال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[الحجرات:١٤]، وقد ثبت في «الصحيح» أنّ النبي ﷺ أعطىٰ عطاء. فقال له بعض الصحابة: يا رسول الله؛ أعطي فلانا فإني ما علمت أنه مؤمن؛ يعني إن علمي فيه أنه مؤمن، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «أو مسلم»، فكرره عليه فقال النبي ﷺ: «أو مسلم» فكرر ثالثة فقال: «أو مسلم»، ثم قال: «إني لأعطي» إلىٰ آخر الحديث.

فالمقصود أنّ الإيمان والإسلام الصحيح أنهما متغايران، وأنّ الإسلام إذا اجتمع مع الإيمان فيعني به العمل الظاهر مع أصل الإيمان، والإيمان إذا اجتمع مع الإسلام فيعني به الإيمان الباطن مع أصل الإسلام.

وهٰذا ظاهر بيّن.

ومن قال: إنّ الإسلام والإيمان شيء واحد كالبخاري وغيره من العلماء؛ يقول: إنّ الإسلام في آية الحجرات وفي غيرها لما فرّق بينه وبين الإيمان: فإنما سمي إسلاما لأنه استسلام من القتل ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ يعني لم يحصل لكم إيمان ولا إسلام علىٰ الحقيقة ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ يعني استسلمنا خوفًا من القتل، هكذا يؤولونها، وهٰذا ليس بجيد لأنّ حديث جبريل يرده، حديث جبريل قال: أخبرني عن الإسلام، ثم قال: أخبرني عن الإيمان، ففرق بين الإسلام والإيمان، فدل علىٰ أن الإسلام ليس هو الاستسلام من القتل، وإنما هو فعل الطاعات الظاهرة بالجوارح مع أصل الإيمان، في بحث طويل معروف في هٰذه المسألة.

وقوله جل وعلا: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٣٧﴾، ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ﴾ يعني في هٰذه القرية، ﴿ءَايَةً﴾ لأنهم عوقبوا بالحجارة، والحجارة كانت مسوّمة يعني معلمة، فكل حجر عليه اسم صاحبه الذي سيصيبه؛ لأنهم كانوا يفعلون الفاحشة.

ومن هٰذا اختار كثير من أهل العلم أن من فَعل فِعل قوم لوط فإنه يُرمىٰ بالحجارة حتىٰ يموت لأنّ الله جل علا أرسل إليهم الملائكة بالحجارة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾ وهٰذا دليل واضح الدلالة علىٰ ذلك، وأن من فَعل فِعل قوم لوط فإنه

يُقتل؛ لأن أولئك عوقبوا بالقتل، وهـٰذا قول طائفة من أهل العلم.

وقال الجمهور: إن من فَعل فِعل قوم لوط فإنه كالزاني، فإن كان ثيِّبا قد عرف النكاح فإنـه يقتـل، وإن كان غير محصن فإنه يُجلد، وهـٰذا الذي عليه مذهب الإمام أحمد وجماعة من الأئمـة وهـو الـذي عليـه العمل في المحاكم هنا.

... ما أعرف؛ لكن الظاهر ظاهر الآيات أنها ما استثنيت، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ ﴾[التحريم]، الظاهر أنها ما استثنيت؛ لكن إذا كان فيه دليل خاص لا أدري.

[الدرس الرابع]

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ آيَةٌ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ أَيْ: بِدَلِيلٍ بَاهِرٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ أَيْ: فَأَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا جَاءَهُ بِهِ مُوسَىٰ مِنَ الحق المبين، استكبارا وَعِنَادًا.

قَالَ مُجَاهِدٌ: تَعَزَّزَ بِأَصْحَابِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: غَلَبَ عدُو اللهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ أَيْ: بِجُمُوعِهِ الَّتِي مَعَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾[هود]، وَالْمَعْنَىٰ الْأَوَّلُ قَوِيٌّ كَقَوْلِهِ: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الحج:٩]، أَيْ: مُعْرِضٌ عَنِ الْحَقِّ مُسْتَكْبِرٌ، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩﴾ أَيْ: لَا يَخْلُو أَمْرُكَ فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا، أَوْ مَجْنُونًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ أَيْ: أَلْقَيْنَاهُمْ ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ وَهُوَ الْبَحْرُ ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾ أَيْ: وَهُوَ مَلُومٌ كَافِرٌ جَاحِدٌ فَاجِرٌ مُعَانِدٌ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١﴾ أَيِ: الْمُفْسِدَةَ الَّتِي لَا تُنْتِجُ شَيْئًا. قَالَهُ الضَّحَّاكُ، وقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ﴾ أَيْ: مِمَّا تُفْسِدُهُ الرِّيحُ ﴿إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ أَيْ: كَالشَّيْءِ الْهَالِكِ الْبَالِي.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدِ اللهِ بن أَخِي ابْنِ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا عَمِّي عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ -يَعْنِي: ابْنَ عَيَّاشٍ -الْقُتْبَانِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ دَرَّاجٍ، عَنْ عِيسَىٰ بْنِ هِلَالٍ الصَّدَفِي، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الرِّيحُ مُسَخَّرَةٌ مِنَ الثَّانِيَةِ -يَعْنِي مِنَ الْأَرْضِ الثَّانِيَةِ-فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُهْلِكَ عَادًا أَمَرَ خَازِنَ الرِّيحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا تُهْلِكُ عَادًا، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أُرْسِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار: لَا إِذًا تَكْفَأُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أُرْسِلُ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ خَاتَمٍ. فَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾» هَذَا

الْحَدِيثُ رَفْعُهُ مُنْكَرٌ، وَالْأَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ مَوْقُوفًا عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، مِنْ زَامِلَتَيْهِ[1] اللَّتَيْنِ أَصَابَهُمَا يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَغَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ قَالُوا: هِيَ الْجَنُوبُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[2] مِنْ رِوَايَةِ شُعْبَةَ، عَنِ الْحَكَمِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ».

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي إِلَىٰ وَقْتِ فَنَاءِ آجَالِكُمْ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت:١٧]، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمُ انْتَظَرُوا الْعَذَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَجَاءَهُمْ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ بُكْرَةَ النَّهَارِ.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أَيْ: مِنْ هَرَبٍ وَلَا نُهُوضٍ، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أَيْ: وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يَنْتَصِرُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وَكُلُّ هَذِهِ الْقِصَصِ قَدْ تَقَدَّمَتْ مَبْسُوطَةً فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ، مِنْ سُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ. والله تعالىٰ أعلم.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فهٰذه الآيات مشتملة علىٰ أنواع من آي الله جل وعلا في خلقه وفي فعله بأعداء رسله فقال جل وعلا: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ يعني كما قال فيما قبل ذلك: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ﴾ يعني وفي موسىٰ آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ وكلمة ﴿إِذْ﴾ بمعنىٰ حين؛ ولكنها تقتضي استحضار التفاصيل التي يعلمها من يذكَّر بالشيء، قال: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أو وفي موسىٰ آية واذكر حين أرسل.

قال علماء المعاني ﴿إِذْ﴾ تأتي في القرآن منصوبة بفعل مضمر تقديره: اذكر أو اذكروا، وهٰذا التذكّر

---

(١) يعني أنه من التوراة؛ لأن عبد الله بن عمرو أصاب أوراقا من التوراة وأصبح يحدِّث منها يعني بأحاديث بني إسرائيل.

(٢) «صحيح البخاري»، حديث رقم (١٠٣٥)، «صحيح مسلم»، حديث رقم (٩٠٠).

ليستحضر جميع التفصيلات المعلومة في هـٰذه القصة، كما في قوله تعالىٰ مثلا: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾[الأنفال:٢٦]، وغالبا ما يحذف الفعل اذكر أو اذكروا وتبقىٰ إذْ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾(١)، ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾[المائدة:١١١]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾[المائدة:١١٦]، ونحو ذلك يعني لأنها منصوبة بفعل مضمر تقديره أذكر في كثير من المواضع.

وهـٰذا يعني استحضار جميع التفاصيل وكأن الذي يذكر بذلك حضره فطلب منه أن يمرّ كل شيء حصل بين عينيه لتكون العبرة أقوىٰ ولتكون الحجة أعظم.

قال جل وعلا: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)﴾ موسىٰ عليه السلام أُرسل بالسلطان، وأرسل بالآية، وأرسل بالبرهان.

هـٰذه ثلاثة أشياء سميت بها حجج الأنبياء، فحجج الأنبياء التي دلت علىٰ صدقهم وكانت ظاهرة فوق ما مع عدوهم هي **السلطان والآية والبرهان والبينة أيضا الرابع البينة.**

كما في قوله جل علا مثلا في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾[الأعراف]، وقال سبحانه: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾[النمل:١٢]، وقال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص:٣٢]، وقال: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠)﴾[إبراهيم]. وأشباه ذلك.

فحجج الأنبياء التي أيّدوا بها تسمىٰ في القرآن البراهين والسلطان والآية والحجة والبينة.

وأما تسميتها معجزة فهو اصطلاح حادث، وقد يكون فيه محذورٌ؛ لأنّ السلف ما استعملوا في آيات الأنبياء لفظ المعجزة، وإنما درجوا علىٰ ما جاء في القرآن من تسميتها آية وبرهانا وسلطانا وبيِّنة وحجة ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[الأنعام:٨٣].

قال تعالى هنا: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)﴾ والمبين يشتمل علىٰ شيئين:

أنه بيِّن في نفسه، قوي، ظاهر، واضح، لا التباس فيه.

وأيضا مبين لفساد غيره؛ لأن كلمة (مبين) في القرآن:

- تكون من أبان اللازم بمعنىٰ وضح الشيء وظهر وبان واتضح.
- وتكون من أبان المتعدية إذا أبا غيره وأوضح ما فيه.

(١) سورة: البقرة؛ الآية (٣٠)، الحجر؛ الآية (٢٨).

سمىٰ الله جل علا السلطان هنا الذي أوتيه موسىٰ وهو الحيّة، انقلاب العصا حية التي يعلمون أنه لا يستطيع ساحر أن يأتي بها سمّاها سلطانا مبينا، وهي كذلك من جهة أنها أبانت أن ما مع السحرة باطل.

فقال سبحانه هنا: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ الركن هنا الجانب كما قال سبحانه بآية الحج: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الحج:٩]، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ يعني تولىٰ بجانبه مستكبرا عن ذلك مثل ما رجحه ابن كثير كما سمعتم.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ وهٰذا واضح.

وقال بعدها: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ الريح منها ما هو نافع ومنها ما هو غير نافع، منها ما يتولد منه الخير ومنها ما لا يتولد منه خير أو يكون سببا للشر.

والخير ريح الخير تسمىٰ ريح الخير كما قال جل علا: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر:٢٢]، يعني تلقح السحاب.

وهٰذه الريح سميت عقيما؛ لأن العقيم هو الذي لا يتولد منه شيء مما ينفع ولهٰذا كانت متمحضة للشر.

قال سبحانه هنا: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ وهٰذا العموم مخصوص بالمساكن كما قال سبحانه في آية الأحقاف ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، مثل ما هو معلوم في حال هؤلاء أن مساكنهم بقيت لتدلّ علىٰ العذاب الذي نالهم.

فإذن في قوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ هٰذا العام مخصوص أو يقال: إنه قيد هنا بقوله: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾، والمساكن ربما أنها لم تأت عليها فيبقىٰ العموم علىٰ حاله.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ يعني ثلاثة أيام كما في قوله جل علا قال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾[هود]، والآيات واضحة المعنىٰ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُنَبِّهًا عَلَىٰ خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ أَيْ: جَعَلْنَاهَا سَقْفًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا.

﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أَيْ: بِقُوَّةٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وقَتَادَةُ، وَالثَّوْرِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾، أَيْ: قَدْ وَسَّعْنَا أَرْجَاءَهَا وَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمِدٍ، حَتَّىٰ اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ أَيْ: جَعَلْنَاهَا فِرَاشًا لِلْمَخْلُوقَاتِ.

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَاهَا مَهْدًا لِأَهْلِهَا.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أَيْ: جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ أَزْوَاجٌ: سَمَاءٌ وَأَرْضٌ، وَلَيْلٌ وَنَهَارٌ، وَشَمْسٌ وَقَمَرٌ، وَبَرٌّ وَبَحْرٌ، وَضِيَاءٌ وَظَلَامٌ، وَإِيمَانٌ وَكُفْرٌ، وَمَوْتٌ وَحَيَاةٌ، وَشَقَاءٌ وَسَعَادَةٌ، وَجَنَّةٌ وَنَارٌ، حَتَّىٰ الْحَيَوَانَاتُ جِنٌّ وَإِنْسٌ، ذُكُورٌ وَإِنَاثٌ وَالنَّبَاتَاتُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أَيْ: لِتَعْلَمُوا أَنَّ الْخَالِقَ واحدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أَيِ: الْجَئُوا إِلَيْهِ، وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ عَلَيْهِ.

﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ أَيْ: وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ﴿ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾.

قال ﷻ هنا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾، وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ هٰذا يشمل جنس السموات، فالمراد بالسماء هنا واحدة السموات، وقوله: ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ شيدناها ورفعناها وبنيناها بقوة وشدة، فالأيد هٰذه كلمة مفردة ليست جمعا ومعناها القوة والشدة، كما في قوله تعالىٰ في سورة ص: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٧﴾﴾؛ يعني ذا القوة والشدة والسّطوة.

فقوله سبحانه هنا: ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني بنيناها بقوة؛ لأن السماء أمرها عجيب، والسموات السبع متراكبة بعضها فوق بعض؛ طباق، وهي سقف محفوظ -يعني السماء الدنيا- سقف محفوظ لهٰذه الأرض، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني فيها، ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ في السماء

وفيما خلق الله جل وعلا، فهو ﷻ الواسع، وهو الموسع للأشياء إذا أراد وإذا شاء ﷻ.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ هـٰذه:

تحتمل أن يكون المراد بها أصل الخلق.

ويحتمل -وهو الأرجح- أن يكون المراد بها ما يكون من التغيير يوم القيامة؛ لأن الجنة التي وعد أهل الإيمان تسع السَّمٰوات: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]، والآية الأخرىٰ التي في الحديد، فالسمٰوات والأرض فيها الجنة، عرضها السمٰوات والأرض، والنار في الأرض، وهـٰذا؛ لأن الله ﷻ يوم القيامة يوسع الأشياء ويوسعها كما قال هنا سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني يوم القيامة ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]، تتوسع في الأرض وتتوسع السماء فتكون الأرض فيها النار وتكون السماء فيها الجنة.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ [الشيء] هـٰذا يدخل في كل هـٰذه التي ذكر الإيمان والكفر والجنة والنار والسماء والأرض، أخذه من لفظ (شيء)؛ لأنّ كلمة شيء تدل علىٰ ما يصح أن يعلم أو ما يؤول إلىٰ العلم وهـٰذه الأشياء داخلة في العموم ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ والأزواج هي المتقابلة بعضها يضاد بعضا، فالسّماء مقابلة للأرض، والليل يقابل النهار ويضاده، والجنة تقابل النار وتضادها، وهكذا حتىٰ الحيوان والشجر فيه ذكر وفيه أنثىٰ؛ يعني فيه أزواج، وهـٰذا من آيات الله -جل علا- الباهرة التي تدلّ علىٰ أنه ﷻ الخالق، ولهـٰذا قال سبحانه هنا: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾، وهـٰذا كما قال جمع من السلف أنه ينبغي علىٰ العباد وقال بعضهم يجب أن يتفكروا حتىٰ يتذكروا، كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر، فعدنا بالتذكر علىٰ التفكر وحركنا القلوب بهما فإذا القلوب لها أسماع وأبصار.

وهـٰذا ينبغي علىٰ أهل العلم وعلىٰ طلبة العلم وعلىٰ كلِّ مسلم أن يُعاهد نفسه به؛ لأن الله سبحانه أمرنا بالتفكر والتذكر في مخلوقاته فقال سبحانه هنا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾، ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ يعني فتفكروا في ذلك لعلكم تذكرون أنّ الذي فعل ذلك وخلقه هو الله جل جلاله فتستعدون للقائه وتطيعون رسوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، لهـٰذا قال بعدها ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾﴾ والله ﷻ هو الذي لا يُفر منه إلا إليه ﷻ، ولهـٰذا قال هنا: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ يعني فروا من غيره

إليه، وفروا منه ﷻ إليه.

وهٰذا يُعظم الرغب في من عند الله جل علا أو في طاعته وفي حسن التوكل عليه، وحسن الظن به، واعتقاد أنه سبحانه هو الذي يصرف الأشياء كيف يشاء ﷻ، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني بالإيمان، فروا إلىٰ الله بالتوكل، فروا إلىٰ الله بالتوحيد، فروا إلىٰ الله بحسن الظن به ﷻ فروا إلىٰ الله تاركين غيره مهاجرين إليه -جل علا- في طاعته وطاعة رسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾.

هٰذه هي النّتيجة الحاصلة من التفكر والتذكر والإيقان بأن الله هو الواحد في ربوبيته؛ أن يطاع الرسول وأن يُعبد الله وحده دون ما سواه، فمن عالج أمور الرّبوبية وتفكّر فيها لذاتها لا لتقود إلىٰ عبادة الله وحده دون ما سواه وطاعة رسله وطاعة رسوله محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فإنه ليس علىٰ النهج؛ بل التفكر في أفراد الربوبية والتفكر في الملكوت النافع هو الذي يقود إلىٰ طاعة الله -جل علا- وإلىٰ توحيده والاستعداد إلىٰ لقائه، فهٰذا هو الذي يكون نافعا.

أمّا إذا كان للذة العقل أو للذة النظر وأشباه ذلك فإن هٰذا هو صنيع أهل الشرك فإنهم نظروا ولم يستفيدوا، فتأمّلوا في ملكوت الله من جهة الحسن والبهاء والدِّلالة علىٰ الربوبية دون أن يورثهم ذلك الاستعداد للقاء الله جل وعلا.

فلابد من التفكر، والتّفكر الصحيح يورث تذكر الرب جل وعلا والاستعداد للقائه ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾، وقال سبحانه في آيات آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾[آل عمران]، إلىٰ آخر الآيات.

فأفادهم التفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ أفادهم الخوف من النار والسعي في الإيمان ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[آل عمران:١٩٣] إلىٰ آخر الآيات، فدلّ هٰذا علىٰ أنّ التفكر مطلوب ولكن النّافع منه هو الذي يورث التذكر.

فالداعية إلىٰ الله جل علا والعالم وطالب العلم والمرشد إذا حثّ الناس علىٰ التفكر وذكر شيئا من مخلوقات الله التي تدلّ علىٰ وجوده سبحانه وعلىٰ أنه هو الربّ جل علا المصرف لهٰذه، لابد أن يقرن هٰذه بالمقصود من هٰذا التفكر؛ وهو تذكّر الرب جل وعلا وتذكّر لقائه وأنه سبحانه هو الذي ستصير

إليه الأمور جل وعلا.

وأما مجرد ذكر أفراد الرّبوبية وإثبات وجود الله بالدلائل الكونية أو العلمية أو حتىٰ في الدلائل من القرآن والسنة، فإن هـٰذا قاصر؛ بل لابد أن يكون معه نتيجته.

لهـٰذا في القرآن لا يذكر التفكر، لا تذكر آيات الملكوت، إلا ومعها النتيجة منها؛ وهي عبادة الله وحده دون ما سواه للاستعداد لطاعة رسله وأن ما جاء من عند الله حق وأشباه ذلك.

فإذن التفكر وسيلة وليس غاية، ولهـٰذا لابد أن يُجعل وسيلة إلىٰ المقصود الشرعي منه.

نكتفي بهذا..

[الدرس الخامس]

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قَوْلُ تَعَالَىٰ مُسَلِّيًا نَبِيَّهُ ﷺ: وَكَمَا قَالَ لَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ الْمُكَذِّبُونَ الْأَوَّلُونَ لِرُسُلِهِمْ:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ أَيْ: أَوْصَىٰ بعضُهم بَعْضًا بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ؟ ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أَيْ: لَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طُغَاةٌ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، فَقَالَ مُتَأَخِّرُهُمْ كَمَا قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أَيْ: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدُ، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾﴾ يَعْنِي: فَمَا نَلُومُكَ عَلَىٰ ذَلِكَ.

﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أَيْ: إِنَّمَا تَنْتَفِعُ بِهَا الْقُلُوبُ الْمُؤْمِنَةُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أَيْ: إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِآمُرَهُمْ بِعِبَادَتِي، لَا لِاحْتِيَاجِي إِلَيْهِمْ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أَيْ: إِلَّا لِيُقِرُّوا بِعِبَادَتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إِلَّا لِيَعْرِفُونِ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أَيْ: إِلَّا لِلْعِبَادَةِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مِنَ الْعِبَادَةِ مَا يَنْفَعُ وَمِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[لقمان:٢٥]، هَذَا مِنْهُمْ عِبَادَةٌ، وَلَيْسَ يَنْفَعُهُمْ مَعَ الشِّرْكِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ آدَمَ وَأَبُو سَعِيدٍ قَالَا حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ

عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»(١) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَمَنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ؛ بَلْ هُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا عِمْرَانُ -يَعْنِي ابْنَ زَائِدَةَ بْنِ نَشِيط-عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي خَالِدٍ -هُوَ الْوَالِبِيِّ-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ: «يَا ابن آدَمَ، تَفَرَّغ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»(٢) وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ زَائِدَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٣) عَنْ وَكِيعٍ وَأَبِي مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ سَلَّامٍ أَبِي شُرَحْبِيل، سَمِعْتُ حَبَّة وَسَوَاءً ابْنَيْ خَالِدٍ يَقُولَانِ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَعْمَلُ عَمَلًا أَوْ يَبْنِي بِنَاءً -وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: يُصْلِحُ شَيْئًا-فَأَعَنَّاهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَغَ دَعَا لَنَا وَقَالَ: «لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُءُوسُكُمَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللهُ وَيَرْزُقُهُ». وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ابْنَ آدَمَ، خَلَقْتُكَ لِعِبَادَتِي فَلَا تَلْعَبْ، وَتَكَفَّلْتُ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتْعَبْ فَاطْلُبْنِي تَجِدْنِي؛ فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتك فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أَيْ: نَصِيبًا مِنَ الْعَذَابِ، ﴿مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ أَيْ: فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ

---

(١) «سنن أبي داود»، حديث رقم (٣٩٩٣). قال الألباني: صحيح. «جامع الترمذي»، حديث رقم (٢٩٤٠). قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح. قال الألباني: صحيح المتن.

(٢) «جامع الترمذي، حديث رقم (٢٤٦٦). قال الترمذي: هٰذا حديث حسن غريب. «سنن ابن ماجه»، حديث رقم (٤١٠٧). قال الألباني: صحيح.

(٣) حديث رقم (٣٤٦٩).

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد:

فهٰذه خاتمة سورة «الذاريات»، وسورة الذاريات كما قدمنا لك سورة مكية اشتملت علىٰ تقرير الرسالة وما فعل الله جل علا بالمكذبين الأولين.

فابتدأها جل علا بقيام الحجة عليهم بذكر بعض آياته، وذكر حال المكذبين بقوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾.

وذكر بعض آياته جل علا ومصير المؤمنين المتقين المتبعين للرسل في الآخرة، ومصير المكذبين الذين كذبوا بالرسل بإبراهيم عليه السلام وبلوط وبموسىٰ وبعاد وبهود وبصالح وبنوح، إلىٰ أن قال جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ فهٰذه تدلّ علىٰ أنَّ المكذبين للرّسل جميعا كانت حجتهم في رد الرسالات واحدة، فقوله جلّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هٰذا عام يشمل جميع الرّسل، وقوله: ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ هي حصر للمقولة في أنه ساحر أو مجنون.

و﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ هٰذه:

تحتمل أنها قول لكلّ طائفة، لكلّ قوم.

وتحتمل أن تكون لاختلاف الطوائف فبعضهم يقول ساحر وبعضهم يقول مجنون.

فقوم موسىٰ -فرعون ومن معه- قالوا موسىٰ عليه السلام: ساحر، وآخرون قالوا أن رسولهم إنه مجنون وهكذا، ومحمد -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- قال عنه قومه ساحر وقالوا عنه: مجنون أيضا، ووجه كونه ساحرا عندهم أنه أتىٰ بكلام مسجوع والكلام المسجوع من صنيع الكهان والسحرة عندهم، وكذلك بكلام يؤثر في الناس وتخضع له القلوب فجعلوه ساحرا لهٰذه العلة.

وهٰذا يدلك علىٰ أن الذين يضادون الدِّيانة والرِّسالة إذا رموا أهل الحق ببعض الفرية فإنه لابد أن يكون عندهم تعليل، وهٰذا التَّعليل يروّجون به علىٰ ضعفاء العقول والإيمان، أو ضعفاء العقول المكذِّبين المعتدين.

ووجه قولهم: (إنه مجنون) أن المجنون الذي قد أصيب بجني فسكنه فدخل فيه أو أصبح يؤثر فيه، أنه هو الذي يخرج مثل هٰذا الكلام الذي لا يعي أبعاده، ولا يعي أنه يفرق، ولا يعي أنه كذا وكذا من الأفعال التي لا يختارها من يتحكم في نفسه.

فإذن قولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ هٰذا لهم تعليل فيه.

فقوله جل علا هنا: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ تتابعوا على ذلك، ولهٰذا قال بعدها: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وتواصوا به الهمز في أولها ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ هٰذه الهمزة للإنكار عليهم.

وذكرت لكم قاعدة الهمز فيما مضى وأن الهمزة التي تسبق الجمل في التفسير:

- قد تفيد الإنكار.
- وقد تفيد التوبيخ.
- وقد تكون على بابها للتّقرير.

فقوله جل وعلا: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ يعني الحقيقة أنهم لم يتواصوا به لكن اجتمعوا في الطغيان، والطّغيان هو مجاوزة الحد المأذون به، فكلّ من جاوز الحد المأذون به في الأقوال أو في الأعمال فقد أصابه الطغيان، أمر نبيه ﷺ بالتولي عنهم فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ وهٰذا بيِّن ظاهر.

قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وذكر لك يعني عدة معاني في يعبدون، والصحيح أن معنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ يعني إلا لعبادتي، يعني إلا ليوحدوني، واللام هنا هي لام الغاية يعني الغاية من خلقهم هٰذا، وهي تعليل للخلق، وقد يقع من العباد ذلك التوحيد منهم، قد يحصل منهم وقد لا يحصل.

إذن هي تعليل للغاية الشرعية، وذلك يعني أنه مطلوب منهم شرعا أن يعبدوه وحده دون ما سواه.

فليست هي قدرية كما يظن البعض بل الصواب، أنها لبيان الغاية الشرعية من خلقهم.

فإذن معناها إلا ليعبدوني وحدي إلا لعبادتي في بيان الغاية من خلقهم، الغاية الشرعية ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ ذكرتُ لكم مرارا أن الأسماء والصفات في القرآن لها آثارها في ملكوت الله وفي القرآن آثارها، وهٰذا يُعرف بظهور التّعليل في الآيات، والتّعليل يستفاد بستة

أوجه ذكرها العلماء في مبحث القياس في الأصول:

ومنها مجيء ﴿إِنَّ﴾ بعد الأمر أو النهي في الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ دلّ على أنّ العلة في كونه -جل علا- ما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه -جل علا- أنه سبحانه هو الرزاق الذي يَرزق ولا يُرزق وأنه هو ذو القوة سبحانه، وأنه المتين ﷻ الذي كمل في غناه وكمل في أسمائه وصفاته.

وكذلك من مسائل التعليل التي تظهر بها آثار الأسماء والصفات مجيء الجملة مرتبة بالفاء وبالشرط وبجوابه وبالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت، وأشباه ذلك من ما هو مقرر في موضعه. الباقي واضح.